# قصة فقدان

سي. أس. لويس

ترجمة: د.أوسم وصفي

ophir

# قائمة المحتويات


التقديم ..... ٩

التمهيد ..... ١٧

الفصل ١ ..... ٢٩

الفصل ٢ ..... ٤١

الفصل ٣ ..... ٥٧

الفصل ٤ ..... ٧٧

كلاسيكيَّات سي. أس. لِويس ..... ٩٣

# التقديم

عندما نُشِرَ هذا الكتاب أوَّلَ مرَّة تحت الاسم المستعار أن. دبليو. كليرك (N. W. Clerk)، أعطاني إيَّاه أحد الأصدقاء. قرأتُهُ باهتمام بالغ، ولكنْ مع وجودِ مسافةٍ نَفسِيَّةٍ كافية بيني وبينه؛ فقد كُنتُ حينها في مُنتَصَفِ زَواجي، ولديَّ ثلاثة أطفال. ومعَ أنِّي شعرتُ بالكثير من التعاطف مع مشاعر الفقدان التي اجتازها سي. أس. لِويس (C. S. Lewis) جرَّاء وفاة زوجته، فإنَّ الأمرَ حينها كان بعيدًا جدًّا عن خبرتي الشخصيَّة، فلم أتأثَّر كثيرًا.

بعد مرور سنوات على ذلك؛ وبعد وفاة زوجي، أرسل إليَّ الكتابَ صديقٌ آخر فقرأتُه. تَوَقَّعتُ أن أشعرَ سريعًا بالانخراط الوجدانيِّ الذي لم أشعُر به في أثناء قراءتي الأولى. بعضُ الأجزاءِ من الكتاب لَمَسَتني بعُمق، لكن في المُجمل، كانت خبرةُ الفقدان التي مررتُ بها مختلفةً تمامًا عن خبرة لِويس. مثلًا، عندما تزوَّج لويس بالسيِّدة جوي ديڤيدمان (Joy Davidman) كانت بالفعل في المستشفى. لقد كان يعرف أنَّه يتزَوَّج بامرأة تحت وطأة السرطان. ومعَ أنَّ السرطان تراجَعَ بصورةٍ مدهشة؛ ومع أنَّهما عاشا بعض السنوات الطيِّبة معًا،

فقد كانت خبرته الزوجيَّة أشبَه بتذوُّقٍ عَابِر للحياة الزوجيَّة، مقارَنَةً بزواجي الذي دامَ أربعين سنة. يبدو الأمرُ كأنَّ لويس قد دُعيَ إلى وليمة الزواج الكُبرى، ثمَّ خُطِفَت منه بوقاحة، وهو لا يزال يتذوَّق بعضَ المُقَبِّلات.

لقد أصابَ ذلك الحرمانُ المباغتُ لِويس بفقدانٍ مؤقَّتٍ لإيمانِه. كَتب لِويس: "أين الله؟...عندما تقصِدُه وقتَ الحاجة المُلِحَّة، وعندما تذهب كلُّ أشكال العَونِ الأخرى أدراجَ الرِّياح، فما الذي ستَجِده؟ ستجدُ بابًا يُوصَد بشدَّةٍ في وجهك".

إنَّ موت شريك الحياة بعد زواجٍ طويلٍ ومُشبِع، لهو أمرٌ مُختَلفٌ تمامًا. ربَّما لم أشعُرْ بقوَّة حضور الله مثلما شعرتُ به في الشهور التي كان زوجي فيها يُحتَضَر، وبعد وفاته. لم يمحُ ذلك الحضورُ مَشاعِرَ الفَقْد. إنَّ مَوتَ الأحِبَّاءِ مثل بَترِ أحد أعضاء الجَسَد. عندما يتزوج شخصان، يجب أن يقبلَ كلاهما أنَّ واحدًا منهُما سيموت قبل الآخر. عندما تزوَّج سي. أس. لِويس بجوي ديڤيدمان، كان من شبه المؤكَّد أنَّها سترحل قبلَه، إلَّا إذا وقعَ حادثٌ غير متوقَّع. لقد دَخل عالم الزواج مصحوبًا بتوَقُّع الموتِ الوشيك، في ما يُعَدُّ تعبيرًا متميِّزًا عن المحبَّة والشجاعة والاستعداد للتَّضحية. أمَّا الموت الذي يحدث بعد زواجٍ طويلٍ ومُكتَمِل، ومدَّة طويلة نسبيًّا من العمر، فهو جزءٌ من تلك الدراما الإنسانيَّة المُدهشة التي فيها نولَد ونُحِبُّ ونعيش، ثمَّ نموت.

عندما قرأتُ هذا الكتاب في أثناء اختباري الشخصيِّ للفُقدان، فهمتُ أنَّ كلَّ خبرةِ فُقدانٍ تختلفُ عن الأُخرى. هناك بعض التشابُهات الأساسيَّة: ذكَرَ لِويس ذلك الشعورَ الغريب بالخوف، والإحساسَ بالرَّغبة في بَلع الريق، واضطرابَ الذاكِرة. أيضًا قد يشعرُ كلُّ المؤمنين مثلما شعر لِويس، بالرُّعبِ من هؤلاء الذين يقولون عند وقوع أيَّة مأساة: "لتكن مشيئتك"، مع أنَّ إله المحبَّة لن يشاءَ أيَّ شيءٍ سوى الخَيرِ لَنا نَحنُ المخلوقات.

ويعبِّر لِويس عن نفاد صبره من هؤلاء الذين يحاولون أن يتظاهروا أنَّ الموتَ أمرٌ ليس مهمًّا للمؤمن، وهو نفادُ صَبرٍ يَشعرُ به أغلبُنا مَهما كان مستوى إيماننا. وممَّا أشترك فيه مع لِويس أيضًا هو خَوفنا من النسيان. لا توجد صورة فوتوغرافيَّة تقدر أن تُعيدَ إلى الذاكرة ابتسامةَ المحبوب. ومن وقت إلى آخر، يُمكن أن تُثيرَ لمحَةٌ عابِرةٌ لشَخصٍ يسيرُ في الشارع نبضةً موجِعةً من التذكُّر الحقيقيّ. لكنَّ ذكرياتنا- وإنْ كانت عزيزة وثمينة- تتسرَّبُ منَّا كما تتسرَّب الحبوب الضئيلةُ من فتحات الغربال.

ومثل لِويس، كنتُ أحتفظ بمذكِّراتي، وهي عادةٌ بدأتُها في سنِّ الثامنة. لا بأس أن ينوحَ المرءُ ويتخبَّط في مذكِّراته الشخصيَّة. إنَّها وسيلةٌ للتخلُّص من الشفقة على الذات والانحصار فيها. فما نعبِّرُ عنه ونتعامَل معه في مذكِّراتِنا، لا نبوحُ به مع أُسَرِنا وأصدقائِنا. أنا شاكرةٌ لِلويس على أمانته وصِدقِهِ في التعبير عن نَوحِه في هذه المذكِّرات؛ لأنَّها تعلنُ صراحةً أنَّ النوحَ مصرَّحٌ للإنسان، وهو أمرٌ طبيعيٌّ. لا بأسَ أن ننوحَ، كما يُسمَحُ

للمسيحيِّ بهذا التجاوُب الطبيعيِّ مع الفَقْد. يطرحُ لِويس الأسئلةَ التي نطرحُها جميعًا: أين يذهب من نُحِبُّهُم بعد أن يموتوا؟

ويكتب لِويس: "لقد كنتُ أستطيعُ دائمًا أن أُصلِّي من أجل الموتى، وما زِلتُ أفعَل، مَعَ بَعضِ الثقة. لكنِّي عندما حاولت أن أُصَلّي من أجل «هـ» (كما كان يدعو دائمًا جوي ديڤيدمان) فإنِّي أجدُ نفسي أتوقَّف". وأنا أفهَمُ جيِّدًا هذا الشعور. إنَّ المحبوب جزءٌ من أنفسنا، وليس لدينا تُجاهَه إحساسٌ بالمسافة. كيف يُمكِنُكَ أن تُصلِّي من أجل مَن يُعدُّ جُزءًا من قلبك؟

ليست لدينا أيَّة إجابات بسيطة. لا تزال الكنيسة تعيش في عَصر ما قبل كوپرنيكوس في ما يتعلَّق بالموت. لم يحلَّ محلَّ صورة العصور الوُسطى عن الموت أيُّ شيء أكثر واقعيَّة أو مَحَبَّة. ربما لهؤلاء المقتنعين أنَّ المسيحيِّين الذين يفكِّرون مثلهم، هُم وحدَهم المُخلَّصون والذين سيذهَبون إلى السَّماء، لا تزال الأفكار القديمة كافية. لكنَّ الأمرَ لأغلبنا، نحن الذين نرى أنَّ الله أكثر محبَّة من صورة الإله القَبَليِّ الذي يُحبُّ فقط "قبيلته" ويهتمُّ بها، فنحن لا نزالُ نحتاجُ إلى المَزيد. وذلك المزيد هو قفزة إيمان، وتأكيدٌ أنَّ ما خُلِقَ بمحبَّة، لا يُمكن هجره. إنَّ المحبَّة لا تخلقُ ثمَّ تُرسل ما خلقتْه إلى العَدَم. أمَّا أين جوي ديڤيدمان الآن، وأين زوجي الآن، فهذه أسئلة لا يستطيع أيُّ خادم أو لاهوتيٍّ أن يجيبَ عنها في إطار محدَّد من الحقائق التي يُمكن إثباتُها. يكتب لِويس: "لا تكلِّمْني عن تعزياتِ الدِّين، وإلَّا سأشُكُّ أنَّك لا تفهَم ما أمرُّ به".

ليسَتْ تَعزِياتُ الدِّين وَردِيَّةً ودافِئة، ولكِنَّها مُعزِّية، كما هو المعنى الحقيقي للتعزية. والكلمة الإنكليزيَّة للتعزية "Comfort" تعني حرفيًّا "مع القوَّة". أيْ أنَّها تعطينا القوَّة كي نواصِلَ الحياة، والثقة بأنَّ ما تحتاج إليه جوي أو ما يحتاج إليه أيُّ شخصٍ نُحبُّه قد انتقل، سيجري الاعتناءُ به بتلك "المحبَّة" ذاتها التي بدأتْ كلَّ شيء.

يرفض لِويس، وهو مُحِقٌّ، هؤلاء الذين يقولون له في تقوى إنَّ جوي سعيدة الآن، وإنَّها تنعمُ بالسَّلام. إنَّنا لا نعلم ما يحدثُ بعد الموت، لكنِّي أعتقد أنَّ أمامنا جميعًا الكثيرَ لنتعلَّمَه، وليس بالضَّرورة أن يكونَ هذا التعلُّم سهلًا. قال العالم النفسيُّ الشهير كارل يونغ (Carl Jung) إنَّه لا يوجد قدومٌ إلى الحياة دون ألم، وربَّما ينطبق هذا أيضًا على الحياة بعد الموت. الشيءُ المهمُّ الذي ينبغي التركيز عليه هو أنَّنا لا نعلَمُ. ليس الأمر في نطاق التيقُّن والإثبات، بل في نطاق المحبَّة.

أنا أيضًا شاكرةٌ لِلِويس، لأنَّه امتلك الشجاعة الكافية لكي يصرخ، وأن يشُكَّ، وأن يعبِّرَ عن رفضه وتمرُّدِه أمام الله بغَضَب وعنف. إنَّ هذا جزءٌ من النَّوح الصِّحِّيّ، لكنَّه لا يلقى الكثير من التشجيع. إنَّ من المفيد أن نجد أنَّ شخصًا مثل لِويس، الذي كان مُدافعًا ناجحًا عن المسيحيَّة، يعترف بشكوكه في ما كان دائمًا يُعلِنُه بقوَّةٍ ويدافِعُ عنه بامتياز. إنَّ هذا يُعطينا التصريح أن نعترفَ بشكوكنا وغضبنا وآلامنا، ونعلمُ أنَّ كلَّ هذه الأمور أجزاء طبيعيَّةٌ من نموِّ النفس الإنسانيَّة.

يشاركنا لويس إذًا بنموِّهِ وأفكاره الثاقبة على المستوى الروحيّ. "إنَّ فقدانَ المحبوب ليس بَترًا للحُبّ الزوجيِّ، لكنَّه مرحلةٌ من مراحله المُعتادة- مثل شهر العسل. إنَّ ما نريده هو أن نعيشَ زواجَنا جيِّدًا وبإخلاص، في هذه المرحلة أيضًا". أجل، هذه هي دعوة شريك الحياةِ عندما يُتَوَفَّى شريكُه.

لديَّ صورٌ لزَوجي معلَّقةٌ في مكتبي وغرفة نومي، الآن بعد رحيله. وهي حاضرةٌ تمامًا كما كانت حاضرةً وهو على قَيدِ الحياة، لكنَّها الآن أيقونات، وليست أصنامًا. إنَّها ومضاتٌ صغيرةٌ للتذَكُّر، وليست أشياءَ في ذاتها، وكما يقول لِويس، فإنَّ هذه الأمور قد تكون أحيانًا عقبة في سبيل التذكُّر، وليست مُساعدةً عليه. يكتب لِويس: "إنَّ الواقع دائمًا ما يكسر الأيقونات". ويكتب أيضًا مُوَجِّهًا الكلامَ إلى ذاته: "إنَّ المحبوبةَ الأرضيَّةَ، حتَّى في هذه الحياة، دائمًا ما تتغلَّب، وبصورةٍ متزايدة، على أفكارك من نحوها. وأنت تريدها أن تفعل ذلك. تريدها كما هي بالفعل، وليس كما تريدُها أن تكون، بكلِّ مقاوماتها وأخطائها وأفعالَها وأقوالِها غير المتوقَّعة...وهذا هو ما ينبغي أن نُحبِّه بعد أن تموت، لا الصورة أو الذكرى".

وهذا أهمُّ كثيرًا من زيارات الموتى، رغم أنَّ لويس يتكلَّم عن إمكانيَّة حدوث ذلك. في النهاية، فإنَّ ما يسطعُ على الصفحات الأخيرة من هذه المذكِّرات التي كتبها في نَوحه على زوجته، هو تشديده على المحبَّة- محبَّته لجوي ومحبَّتها له، وعلى أنَّ هذه المحبَّةَ تعيشُ في إطار محبَّة الله الجامعة.

لا توجد في هذا الكتاب تعزياتٌ سَهلَةٌ أو شاعريَّة. أمَّا ما يوجد، فهو القصدُ النهائيُّ لمحبَّة الله من نحونا جميعًا، نحن البشر. إنَّ قراءة هذا الكتاب تتيح ليس فقط مشاركة لِويس فقدانه ونَوحه، بل أيضًا مفاهيمَه عن المحبَّة، وهذا بالتأكيد ثراءٌ حقيقيّ.

**مادلين لانغل** (Madeleine L'Engle)

**من كروسويكس** (Crosswicks)، **آب/أغسطس ١٩٨٨م**

# التمهيد

ليس هذا الكتاب كتابًا عاديًّا. بل يُمكن القولُ إنَّه لَيسَ كتابًا أصلًا، بل بالأحرى هو نتاجٌ مُفعَمٌ بالمشاعر لما فَعَلَه إنسانٌ شجاعٌ عندما قرَّر أن يواجهَ ألَمَه الشديد ويفحصَه حتَّى يستطيعَ أن يَفهَم ما يجب أن نفعله في هذه الحياة، التي علينا فيها أن نتوقَّعَ وُقوعَ الألم والحُزن الناتجَين عن فقدان مَن نُحبُّ. إنَّ من الإنصاف أن نقولَ إنَّ أشخاصًا قليلين جدًّا يستطيعون تأليفَ كتابٍ كهذا، وربَّما من الإنصاف أن نقولَ إنَّ عددًا أقلَّ من الناس يُمكن أن يُقدِموا على تأليف كتاب مثل هذا حتَّى وإنْ كان هذا في استطاعتهم، وعددًا أقلَّ وأقلَّ بعدُ يملكون الجرأة على نشره بعد الانتهاء من كتابته.

كان زوجُ أمِّي، سي. أس. لِويس، قد كتبَ من قبلُ كتابًا عن الألم (”**مشكلة الألم**“ *[The Problem of Pain]*، ١٩٤٠م)، ولم يكُنِ الألم خبرةً غريبة عنه. لقد اختبر الفُقدان في طفولته عندما تُوُفِّيَت أمُّه لما كان في سنِّ التاسعة، كما اختبر أيضًا فُقدان الأصدقاء عبر السنين، بعضُهُم فَقَدَهُم على أرض المَعركة إبَّانَ الحرب العالميَّة الأولى، وغيرهم فَقَدَهُم بسبب المرض. كما كتب أيضًا عن الشعراء العظام وأغنياتهم

عن الحُبِّ. غير أنَّ ما لم يكن لتعليمه أو خبراتِه أن تُعِدَّهُ لاختباره هو ما اختبرَهُ عند اجتماعِ الحُبِّ العَظيم، والفُقدان الأليم، وهُما في الواقع وَجهانِ لعُملة واحِدة. الفَرَح الغامِر الذي نشعر به عند العثور على الشريك الذي أعدَّه الله لنا والفوزِ به، ثمَّ الضَّربة القاصِمة التي نتلقَّاها عندما نَفقدُ ذلك الشريك، وهذا هو الإفساد الذي يحاول الشيطان باستمرارٍ أن يعمله لعطيَّة الله العظيمة المتمثِّلة في أن نُحِبَّ ونُحَبَّ.

عندما نُشيرُ إلى هذا الكتاب في سياق الحديث، يجب ألا نحسبه دراسة موضوعيَّة عامَّة عن الفقدان، بل قصَّةُ رَجُلٍ قرَّرَ أن يدرُسَ الفقدان الذي اختبره كي يفهمه، وفي النهاية هزمَ الشَّللَ الوجدانيَّ الذي أصابَه بعدَ تلك الضربة الساحِقة التي تلقَّاها.

إنَّ ما يجعلُ هذا الكتاب كتابًا مهمًّا هو أنَّ الكاتبَ رجلٌ استثنائيّ، والمرأة التي ينوحُ عليها هي أيضًا امرأة استثنائيَّة. كان كلاهُما كاتبَين، وكانا موهوبَين أكاديميًّا، وكانا مسيحيَّين مُكرَّسَين، لكنَّ التشابُهاتِ تنتهي هنا. يُبهِرني كيف أنَّ الله يُمكنُ أن يَجمَعَ معًا شخصَين بعيدَين تمامًا بعضهما من بعض، ويجعل منهما واحدًا في انسجامٍ روحِيٍّ عَميق، اسمُهُ الزَّواج.

لقد كان جاك (سي. أس. لِويس) رجلًا تسبَّبت أكاديميَّتُه البارزة، وقدراتُهُ الفكريَّة في عَزلِهِ عَن الكثير من البشر. لقد كان هناك قليلون جدًّا من أقرانه يمكِنُهُم أن يجادلوه ويحاوروه، وهؤلاء الذين يستطيعون ذلك، وجدوا أنفسَهُم قد تقارَبوا وشكَّلوا جَماعةً صغيرةً بصداقة قويَّة

عُرِفَت بِاسْم "الشَّذَرات" (The Inklings)، وهي الجماعة التي تركت لنا تُراثًا ثريًّا من الأدب. جاي. آر. آر. تولكين (J. R. R. Tolkien)، وجون واين (John Wain)، وروجر لانسلن غرين (Roger Lancelyn-Green)، ونيڤيل كوغهيل (Neville Coghill)– كانوا من بين ذلك التجمُّع غير الرسميّ.

أمَّا هيلين جوي غريشام (Helen Joy Gresham)، واسمُها في الميلاد هيلين ديڤيدمان (Helen Davidman)، وهي التي يُشارُ إليها في هذا الكتاب بالحرف "هـ"، فكانت ربَّما السيِّدة الوحيدة التي صادفها جاك وكانت نِدًّا فكريًّا له، فقد كانت غزيرةَ القراءَةِ، وواسعةَ الاطِّلاع مثلما كان هو. كما أنَّهما اشتركا في شيءٍ آخر، وهو الذاكرة الفولاذيَّة. فلم ينسَ جاك أيَّ شيءٍ قَرَأه، ولا هي فعلَتْ.

كانت نشأةُ جاك خَليطًا من الطبقة الوُسطى الإيرلنديَّة (فهو من بلفاست حيث كان يعمل والده كاتِبَ عَدلٍ في مَحكمة الشرطة) والطبقة الوُسطى الإنكليزيَّة في بدايات القرن العشرين– وهو العصر الذي كانت فيه مفاهيم الشرف الشخصيِّ والالتزام التامِّ نحو الكلمة، ومبادئ الفروسيَّة والأخلاق، لا تزال تُلقَّن للولد البريطانيِّ بإصرار والتزام يفوقان أيَّ التزام دينيّ. كانت كتابات إي. نيسبت (E. Nesbit)، ووالتر سكوت (Walter Scott) وربَّما أيضًا روديارد كيپلنغ (Rudyard Kipling) تُعدُّ المُثُل العُليا التي تلقَّنها في شبابه.

أمَّا أُمِّي، فجاءت من خلفيةٍ مُختَلِفَةٍ تمامًا. كانت ابنةً لعائلة يهوديَّة من الطبقية الوسطى الدُّنيا من الجيل الثاني من المهاجرين إلى الولايات

المتَّحدة. كان أبوها من أصول أوكرانيَّة، وأمُّها من أصول بولنديَّة. وُلِدَت وتربَّتْ في حي برونكس (The Bronx) في مدينة نيويورك. أمَّا التشابهات التي كانت بينهما فكانت في نشأتهما الباكرة حيث تميَّز كلٌّ منهما بذكاءٍ ملحوظ مصحوبًا بموهبة أكاديميَّة وذاكرة استثنائيَّة قادرة على استحضار المشاهد بدقَّة وحيويَّة. وصلَ كلٌّ منهما إلى الإيمان بالمسيح عبر الطريق الطويل الصَّعب: من الإلحاد إلى اللاأدريَّة، وصولًا إلى الإيمان بالله عمومًا، ثمَّ الإيمان بالمسيحيَّة، كما تمتَّعَ كلاهما بنجاح لافت في دراستهما الجامعيَّة. تأخَّر جاك في دراسته قليلًا بسبب أداء الواجب الوطنيِّ في الحرب العالميَّة الأولى، وتأخَّرَت أمِّي بسبب النشاط السياسيِّ والزواج.

كُتِبَ الكثير عن حياتِهما ولقائهما وزواجِهما، منه ما كان حقيقيًّا، ومنه ما كان خياليًّا (ومنه ما كان خياليًّا يرتدي ثوبَ الواقع، وواقعًا يلبس ثوب الخيال) لكنَّ الجزءَ الأهمَّ من القصَّة، في ما يختصُّ بهذا الكتاب، فهو الحُبُّ الكبير الذي نما بينهما حتَّى باتَ يُرى كأنَّه شعاعٌ ينبعثُ منهما. فقد كانا عندما يسيران معًا وكأنَّهما مُحاطان بهالة ناتجةٍ عن ذلك الحُبِّ الكبير.

وحتَّى نفهم القليلَ عن الألم الذي يتضمَّنُه هذا الكتاب، والشجاعة التي يُمثِّلها، يجب أوَّلًا أن نُدركَ طبيعةَ الحبِّ الذي نما بينهما. لقد شاهَدتُ هذين الشخصَين الرائعَين يتقاربان بداية بوصفهما صديقَين، ثمَّ زوجَين في تَطوُّرٍ استثنائيٍّ، وأخيرًا حبيبَين. لقد كنتُ جزءًا من صداقتهما، ومن زواجهما، لكنِّي وقفتُ بعيدًا عن الحبِّ.

وبقولي هذا، لا أعني بتاتًا أنَّه جرى استبعادي عمدًا، إنَّما كان حُبُّهما شيئًا لا ينبغي، ولا يُمكن، أن أكونَ جُزءًا منه.

حتَّى في ذلك الوقت، عندما كُنتُ في السنين الأولى لمرحلة المُراهقة، كنتُ أقفُ بعيدًا وأُراقب الحبَّ ينمو بينهما وأشعرُ بالسعادة من أجلهما. لقد كانت سعادةً مَشوبَةً ببعضِ الحُزن والخَوف؛ لأنِّي كنتُ أعرِفُ، كما كان جاك وأمِّي يعرفان، أنَّه كان مقدَّرًا لهذه الأوقات السعيدة أن تكونَ قصيرةً، ثمَّ تنتهي بالحزن والأسى.

لكنْ كان عليَّ أن أتعلَّمَ أنَّ كلَّ العلاقات الإنسانيَّة تنتهي بالألم؛ فهذا هو الثمن الذي يتقاضاه الشيطانُ منَّا، بسبب عدم كمالنا، في مقابل امتياز الحُبّ. لقد مَكَّنَتني مرونةُ شبابي ومتانته من تَحَمُّل موت أمِّي، فقد كانت لديَّ أنواعٌ أُخرى من الحبِّ لأكتشفها، ودون شكٍّ سيؤولُ الأمرُ إلى أن أفقدها أو تفقدني. أمَّا جاك، فقد كانت تلك نهايةَ ما حَرَمَته الحياةُ منه على مدى وقتٍ طويل، ثمَّ أغرَتْه به برهةً من الزمن مثل وعد عقيم لم يُحقَّقْ في النهاية. لم تعُدْ هناك لدى جاك المروجُ الزاهيةُ بأشعَّة الشمس (وإنْ كنتُ أستطيع أحيانًا أن أراها في حياته إنَّما بِلَونٍ باهت)، ونور الحياة والضحك. لقد كان لديَّ جاك لأعتمدَ عليه، أمَّا المسكين جاك، فقد كنت لديه (لكنْ دون أن يتمكَّن من الاعتماد عليَّ).

لقد كنتُ دائمًا أنتظر الفُرصة كي أشرح أمرًا واحدًا صغيرًا في هذا الكتاب، وكان دائمًا مصدرًا لسوء الفهم. يشير جاك إلى حقيقة أنَّه إذا جاءَ ذِكرُ أمِّي، فقد أبدو مُحرَجًا كما لو كان قد ذكرَ أمامي أمرًا

فاحشًا. إنَّه لم يفهم، وهذا أمر غير معتاد بتاتًا عنده. عندما تُوُفِّيتْ والدتي، كنتُ في سنِّ الرابعة عشرة، وكنتُ نتاجًا لنَحوِ سبع سنوات من ثقافة المدارس الإعداديَّة البريطانيَّة. لقد كان الدرس الذي تعلَّمتُه بأكثر شدَّة إبَّانَ ذلك الوقت، هو أنَّ أكثر الأمور التي يمكن أن تصيبني بالخزي، هو أن أنفجرَ في البكاء أمام الناس. الرجال البريطانيُّون لا يبكون. إنِّي أعلمُ أنَّه لو تكلَّم جاك معي عن أُمِّي، فإنِّي سأبكي دون توقُّف، والأسوأ أيضًا أنَّه سيفعل الأمرَ ذاته. لقد كان هذا مصدرَ شعوري بالإحراج. لقد استغرقَني الأمرُ نَحوَ ثلاثين سنة، حتَّى تعلَّمتُ أن أبكيَ دون الشعور بالخزي.

هذا الكتاب هو أشبه بإنسان يُعرِّي نفسه وجدانيًّا في بستان "جَثسيماني" الذي يخصُّه. يحكي هذا الكتاب عن درجة من الألم والشعور بالخواء الناتجَين عن فقدانٍ لا يختبره سوى قليلين منَّا. فكلَّما كان الحبُّ كبيرًا، كان الفُقدان أليمًا. وكلَّما كان الإيمانُ قويًّا، تعرَّضَ لهجمات شيطانيَّة أقوى.

في الوقت نفسه الذي تعرَّضُ فيه جاك للألم النفسيِّ الناتج من الترمُّل، كان يعاني أيضًا الألمَ الفكريَّ الناتج عن ثلاث سنوات من الحياة في خوف مستمرّ، والألم الجسديَّ بسبب هشاشة العظام، وغيرها من الأمراض، علاوةً على الإرهاقِ الناتج من تمضية الأسابيع الأخيرة في العناية المستمرَّة بزوجته المحتَضَرة. لقد تَعَرَّضَ ذهنُه لقَدرٍ لا يُصدَّق من التوتُّر الذي لا يُمكن أن يتحمَّلَه أيُّ إنسان سوى سي.

أس. لِويس. لذا لجأ إلى كتابة أفكاره، وتفاعله مع هذه الأفكار، مُحاولًا أن يجدَ بعضًا من المعنى في غِمار الفوضى التي كانت تعصفُ بذهنه. وفي الوقت الذي كان يكتب فيه هذه الأفكار، لم يكن يَقصدُ أن يُنشَرَ هذا السيل النازف من الأفكار والمشاعر، لكنَّه شعرَ عندما قرأه في وقت لاحقَ، بأنَّها ربَّما تكونُ نَوعًا من المعونة لغَيره ممَّن يعانون مثلَ تلكَ المُعاناة الفكريَّة والوجدانيَّة التي يفرضها علينا الفقدان.

نُشِرَ هذا الكتاب أوَّلًا تحت الاسم المُستعار أن. دبليو. كليرك، وبسبب الأمانة الشديدة والبساطة المُخترِقة التي تميَّز بها هذا الكتاب، صار له تأثيرٌ نادرٌ. إنَّها القوة التي يتميَّزَ بها دائمًا قَولُ الحقيقة كما هي.

وحتَّى يستطيعَ القارئُ أن يُقدِّرَ أعماقَ الفَقد الذي اختبَرَهُ لِويس، من المهمِّ أن يفهمَ المزيد عن الأوضاع التي أحاطت بلقاء جاك وأمِّي وعلاقاتهما الناشئة. كان أبي (الروائيُّ دبليو. أل. غريشام [W. L. Gresham]) وأمِّي حادَّيِ الذكاء والموهبة، وكان هُناك الكثير من الصراعات والصعوبات في زواجهما. تربَّتْ أمِّي بوصفها ملحدةً، ثمَّ صارت شيوعيَّة. لم يسمَحْ لها ذكاؤها الفطريُّ أن تستمرَّ مُنخَدِعة وقتًا طويلًا بهذه الفلسفة، (وفي ذلك الوقت تزوَّجت بوالدي) ووجدَتْ نفسَها تبحث عن شيء أكثر صدقًا وواقعيَّة.

وفي أثناء قراءتها للكثير من الكتَّاب، وقعتْ على أعمال الكاتب الإنكليزيِّ سي. أس. لِويس، ووجدتْ بواسطة كتاباته أنَّ خَلفَ قِشرةَ

الهشاشة والضعف الإنسانيِّ التي تُغطِّي الكنائس المنظَّمة حول العالم، يقبع حَقٌّ صادقٌ ونقيٌّ تتهاوى أمامه كلُّ الأطروحات الفلسفيَّة المصوغة بمهارة. وأدركتْ أيضًا بقراءَتها مؤلَّفات لِويس أنَّها تُقابل عقلًا كان حتَّى ذلك الحين لا يُضاهيه عقلٌ آخر في قَدرِ الوُضوحِ والحِدَّة. وكما هي الحال لكلِّ المؤمنين الجُدُد، كان لديها الكثير من الأسئلة، فبدأت في الكتابة إليه. واستطاع جاك في الحال أن يُميِّزَ رسائلها من بين الرسائل؛ لأنَّها كانت رسائلُ تَشي هي الأخرى بعقلٍ مُميَّزٍ، ونَشَأت بينهما صداقة على مستوى الكتابة والقراءة.

في عام ١٩٥٢م، كانت أمِّي تؤلِّفُ كتابًا عن الوصايا العَشر (''**دخان فوق الجبل**'' *[Smoke on the Mountain]*: منشورات وستمنستر، ١٩٥٣م). وفي أثناء تعافيها من مرض خطير، قرَّرَتِ السفرَ إلى إنكلترا لتُناقِشَ الكتاب مع سي. أس. لِويس. كانت صداقته ونصائحه مُثرِيةً إلى حدٍّ بعيد، وكذلك كانت نصائحُ أخيه دبليو. إتش. لِويس (W. H. Lewis)، وهو مؤرِّخٌ وكاتبٌ قديرٌ أيضًا.

وعند عودة أمِّي إلى الولايات المتَّحدة، اكتشفت (وهي التي صارت عاشقةً للثقافة الإنكليزيَّة) أنَّ زواجها بأبي قد وصل إلى خطٍّ النهاية. وبعد الطلاق، هُرِعت إلى إنكلترا وأخذتني وأخي معها. عِشْنا هناك مدَّة في لندن. ومع أنَّه جرى تبادل الرسائل ما بين أمِّي وجاك، فإنَّ جاك لم يزُرْ منزلنا؛ فهو نادرًا ما كان يأتي إلى لندن، التي لم يكُن مُعجبًا بها. وفي ذلك الوقت لم يكُن هو وأمي إلَّا صديقَين على

المستوى الفكريِّ. غير أنَّنا تلقَّينا، مع آخرين كثيرين، مساعداتٍ كثيرةً من الصندوق الذي كان يديره.

بمرور الوقت، شعرَتْ أمِّي بأنَّ لندن مدينةٌ كئيبة، وأرادت أن تكونَ بالقُرب من دائرة أصدقائها في أكسفورد، بمَن فيهم جاك، وأخوه وارني، وآخرون مثل كاي وأوستن فارَر (Kay and Austin Farrer). أظنُّ أنَّ من التبسيط المُخِلِّ والقفز إلى الاستنتاجات أن نقول إنَّ دافعَها الوحيد من الانتقال إلى أكسفورد هو أن تكون بالقُرب من جاك، لكنَّه كان دون شكٍّ عاملًا مُسهِمًا.

كان الوقتُ القصيرُ الذي أمضَيناه في هيدنغتون (Headington) بالقُرب من أكسفورد، كأنَّه بداية لحياة رائعة. كان يأتي ليزورَنا في بيتنا أصدقاء أعزَّاء عدَّة، وكان مَسرحًا لنقاشات فكريَّة عدَّة. لقد كان أيضًا في ذلك الوقت، أن توطَّدَتِ العلاقةُ ما بين جاك وأمِّي، وبدأت معالمها تتَّضح.

أظنُّ أنَّ جاك كان يقاوم التعَلُّق العاطفيَّ العميقَ الذي بدأه يجمعه بأمي، والذي بدأ يُدركه، لا سيَّما أنَّه ظنَّ مخطئًا، أنَّ مثل هذا الأمر يُعدُّ غريبًا عن طبيعته. كانت صداقتهما على مستوى أفلاطونيٍّ أمرًا مريحًا ولم يُثِر أيَّ اضطراب على صفحة وجوده. لكنَّه شعرَ بقوَّةٍ تدفعه، ليس فقط نحو الإدراك الداخليِّ لحُبِّه لها، بل أيضًا للاعتراف العلنيِّ بذلك الحبّ. لقد نشأت هذه القوَّة من إدراكه المباغت باقتراب فقدانه لها.

ربَّما كان قاسيًا أنَّ موتَها تأجَّل بما يكفي كي ينموَ حبُّه لها بصورةٍ كاملة حتَّى إنَّها ملأتْ حياتَه بالكامل حاسبًا إيَّاها أعظَمَ عطيَّةٍ أعطاه الله إيَّاها في كلِّ حياته، ثمَّ ماتَتْ وتركَتْه وحيدًا في مكانٍ جديدٍ صنعَه حضورُها في حياته، ولم يعرف كيف يملأه بعد أن رحلَتْ.

إنَّ ما يكتشفه كثيرون منَّا، في هذا السَّكيب من الألم الذي يقدِّمه لنا لِويس، هو أنَّنا نعرفُ جيِّدًا ما يتكلَّمُ عنه. إنَّ مَن ساروا منَّا في هذا الدرب نفسه، أو يسيرون الآن فيه وهُم يقرأون هذا الكتاب، يكتشفون أنَّنا في النهاية لسنا وحدَنا كما ظننَّا.

لقد كتبَ سي. أس. لِويس الكثير من الفكر الواضح والصحيح، وهو مُفكِّرٌ مكَّنَه وضوح تعبيراته وحدَّة ذهنه من فهم الكثير، ومسيحيٌّ قويٌّ شديدُ البأس والتصميم. ومَع هذا، فقد سقطَ هو أيضًا على وجهه في خِضمِّ عاصفٍ من الأفكار والمشاعر المتضاربة، وحاول أيضًا مُترنِّحًا أن يبحثَ عن معونة وإرشاد وهو يهوي عميقًا في الهوَّة المظلِمة للفُقدان والنَّوح. لكَم تمنَّتُ أن يَجدَ هو كتابًا مثل هذا يُرشده ويعزيه. إذا لم نجد راحةً في العالم من حولنا؛ ولم نجد عزاءً في صُراخِنا إلى الله، إذا لم تُجدِ كلُّ هذه الأشياء، فعلى الأقل، يُمكن أن يُعينَنا هذا الكتاب ونحن نواجِه نَوحنا وفقداننا. فُربَّما يجعَلُنا كتابٌ كهذا "نُسيء الفَهمَ أقلَّ قليلًا".

للمزيد من القراءة، أقترح كتابَ "**جاك: سي. أس. لِويس وأوقاته**"[1] *(C. S. Lewis and His Times)* لمؤلِّفه جورج ساير (Goerge

1) Harper & Row, Crossway Books 1988.

(Sayer)، والذي يُعدُّ أفضل سيرة حياة عن سي. أس. لِويس؛ وكتاب ليل دورسيت (Lyle Dorsett) عن السيرة الشخصيَّة لأمِّي، وهو بعنوان **"ثمَّ حضر الله"**[٢] *(And God Came In)* (ماكميلان Macmillan، ١٩٨٣). وللحصول على رؤية من داخل الحياة الأُسَريَّة، أشير إلى كتابي **"أراضٍ ربيعيَّة"**[٣] *(Lenten Lands)* (ماكميلان Macmillan، ١٩٨٨، هاربر سان فرنسيسكو Harper San Francisco، ١٩٩٤).

**دوغلاس إتش. غريشام** (Douglas H. Gresham)

2) Macmillan, 1983.
3) Macmillan, 1988; HarperSanFrancisco, 1994.

# ١

لَم يقُل لي أحدٌ من قبل أنَّ مشاعرَ النَّوح تُشبه الخوف. أنا لست خائفًا، لكنَّ ما أشعُرُ به يُشبه الخوف. الحركة ذاتها في المعدة والتوتُّر ذاته، التثاؤب والشعور المُتكرر بالرغبة في البَلْع.

في أوقاتٍ أخرى أشعُرُ كمَن يعاني حالة بسيطةً من السُّكْر، أو كمَن تَعَرَّضَ لارتجاجٍ في المخّ. كما يوجد ما يُشبه ستارة غير مرئيَّة تفصل بيني وبين العالم. أجِدُ صعوبةً في تلقِّي ما يقوله الآخرون. أو ربَّما أجدُ صعوبةً في الرغبة في تلقِّيه؛ فكلُّ ما يُقال لا يلفتُ انتباهي. لكنِّي أريدُ أن يكونَ الناس حولي. أخافُ من الأوقات التي يصيرُ فيها البيت فارغًا. ليتَهُم يبقون معي، ويتكلَّمون بعضهم مع بعض لا معي!

هناك لحظات غير متوقَّعة بتاتًا، عندما أشعر بشيءٍ ما في داخلي يحاول أن يُطمئنني ويؤكِّدَ لي أنِّي يجب ألَّا أعبأَ كثيرًا، ليس كثيرًا جدًّا، وأنَّ الحبَّ لا يُمثِّل مُجمل حياة المرء. لقد كُنتُ سعيدًا قبل أن ألتقي "هـ". إنَّ لديَّ الكثير ممَّا يُمكن أن يُسمَّى "مصادر". عادةً ما يتغلَّبُ الناسُ على مثل هذه الأمور. هيَّا! يجب ألَّا أكون بهذه الدرجة من السوء. إنَّني أشعر بالخزي عندما أستمع إلى ذلك الصوت في داخلي، لكنَّه صَوتٌ

يبدو منطقيًّا بعض الشيء. ثمَّ تأتي وخزةٌ مباغتةٌ من الذكريات الحامية، فيتلاشى كلُّ ذلك "المنطق" مثلما تحترق نملة في نار المحرقة.

ثمَّ من هذا الموقف العقلانيِّ البارد، أرتَدُّ إلى الدُّموع والألم والشفقة على الذات. أكاد أُفضِّل عليها لحظاتِ الألم؛ فهي على الأقل نظيفة وأمينة. لكنَّ غمار الشَّفقة على الذات وذلك التمرُّغَ فيه بلزوجةٍ كريهةٍ يُصيبني بالاشمئزاز. وحتَّى عندما أفعل ذلك أُدرِكُ أنِّي أسيء إلى "هـ" نفسها. فعندما أسمحُ لذلك المزاج بأن يتملَّكني، أكون عندها قد استبدَلتُ بالمرأة الحقيقيَّة دُميةً أبكي كطفلٍ على فُقدانها. أشكرُ الله لأنَّ ذكراها لا تزالُ قويَّةً حتَّى إنَّها لا تسمح لي بمثل ذلك المزاج. (لكن هل ستظلُّ الذكرى قويَّة هكذا؟).

لم تكن "هـ" هكذا بتاتًا. لقد كان ذهنُها صحِّيًّا وسريعًا ومفتول العضلاتِ كفهدٍ- ذهنٌ لا تقوى العاطفة أو الرِّقَة أو الألم على تجريده من أسلحته. لقد كان ذهنًا يشتمُّ أيَّ هَبوب خافت لريح الرياءِ أو الهُراء، فينقَضُّ عليك قبل أن تُدرك ما يحدُث. كم من مرَّةٍ فَضَحَت ما أقولُ من كلامٍ فارغ! فسرعان ما تعلَّمتُ ألَّا أتلفَّظَ أمامها بأيَّة حماقة إلَّا إذا كنتُ أفعل ذلك بدافع الرغبة الخالصة في المزاح- وها وخزة مباغتة من الذكريات الحامية تتملَّكني. لَم أكُن بتاتًا أقلَّ سخافةً ممَّا كنتُ بوصفي حبيب "هـ"؛ فهي قادرة على فَضْحِ أيِّ قدرٍ من السخافة.

لم يُخبرني أحدٌ من قبل بشأن الكسل الذي يُصابُ به النائحون. فباستثناء عملي- حيث تدورُ العَجَلة كالمُعتاد- فإنِّي أكرَه أن أبذلَ أقلَّ

قدرٍ من الجَهد. ليس فقط الكتابة، بل حتَّى قراءة رسالة تبدو لي كأنَّها جَهدٌ جاهد. ينسحبُ الأمرُ كذلك على حلاقة الذقن. فماذا يُهِمُّ الآن إنْ كانت لحيتي خشنةً أم ناعمة؟ يقولون إنَّ الإنسان البائسَ يبحثُ عمَّا يُلهي به نفسه- عن شيءٍ يُخرجه من نفسه. لكنَّ الإنسانَ الذي بلغَ مبلَغَه من التَّعبِ والكَسَل، فإنَّه يفضِّلُ، عندما يحتاج إلى دِثارٍ إضافيٍّ في ليلة باردة، أن يظَلَّ في مكانه يرتجف من البرد على أن يقومَ ويحضِرَ لنفسه غطاءً. لقد صارَ من السهل عليَّ أن أفهم السبب الذي يجعل الوحيدين يصيرون غير مهندَمين، وينتهي بهم الأمر وقد صاروا قَذِرين ومُثيرين للاشمئزاز.

وفي ذلك الوقت أتساءل: أين الله؟ وهذه أكثر الأعراض إزعاجًا في النَّوح. عندما تكون سعيدًا، سعيدًا جدًّا، إنَّك لا تشعر بالحاجة إليه، وتكون سعيدًا حتَّى إنَّك تشعرُ بأنَّ مطالباته عليك هي نوعٌ من التشتيت، وإذا تذكَّرتَه واتَّجهتَ نحوه بالشُّكر، فسيستقبلك بالأحضان، أو هكذا ستشعر. لكنْ عندما تقصَدُه وقتَ الحاجة المُلِحَّة، وعندما تذهب كلُّ أشكال العَونِ الأخرى أدراجَ الرِّياح، فما الذي ستَجِده؟ ستجدُ بابًا يُوصَد بشدَّةٍ في وجهك، وتسمع صوت غلق المزلاج من الداخل مرَّة، بل مرَّتَين. ثمَّ يخيِّمُ الصمت بعد ذلك. ربَّما في ذلك الوقت تبتعد بعيدًا. فكلَّما انتظَرتَ وقتًا أطول، تأكَّد الصمت. ليست هناك أضواءٌ في النوافذ. ربما هذا بيتٌ فارغ لا يَسكُنُهُ أحدٌ. بل هل كان يسكنُه أحدٌ من قبل؟ لقد كان يبدو مسكونًا. وباليقين نفسه الذي يبدو

به الآنَ فارغًا. ماذا يُمكن أن يعني هذا؟ لماذا يحضر جدًّا كآمرٍ وناهٍ في وقت الرخاء، ويختفي في وقت الشدَّة حينما نحتاج إليه ليكونَ مُعينًا؟

حاولتُ أن أعرضَ بعضًا من هذه الأفكار على "س" بعد ظهر اليوم، فذَكَّرَني أنَّ الأمرَ نفسَه حدثَ أيضًا ليسوعَ المسيح عندما صَرَخ: "إلهي، إلهي لمَ تركتني؟" أعلم ذلك. لكنْ هل يجعلُ هذا الأمرَ أسهلَ فَهْمًا؟

ليس أنِّي (على ما أعتقد) في خطر كبير أن أفقدَ إيماني بالله. لكنَّ الخطرَ الحقيقيَّ هو أنْ أومنَ بهذه الأمور المُخيفة عنه. إنَّ الاستنتاجَ الذي أخاف منه ليس أن أقولَ: "إذًا الله غير موجود"، بل أن أقولَ: "هذا هو الله بالفعل. فلا تخدَعْ نفسَك أكثر من ذلك".

خضعَ شيوخُنا وقالوا: "لتكُنْ مشيئتُك". فكَم من مرَّةٍ كُبِتَ الاستياء المَرير بواسطة الرُّعب الشديد والتظاهُر بالحُبّ! أجل، بكلِّ تأكيد، تظاهُرٌ جرى ارتداؤه لإخفاء العمليَّة.

دون شكّ، من السهل أن نقول إنَّ الله يبدو غائبًا في وقت حاجتنا الشديدة؛ ذلك لأنَّه غائبٌ حقًّا- غير موجود. لكن لماذا يبدو حاضرًا جدًّا- ولأقُلْها بصراحة كما هي- عندما لا نطلبُه؟

لقد فعلَ الزواج أمرًا واحدًا لي: أنِّي لا أستطيع في ما بعد أن أُصدِّق أنَّ الدِّينَ أمرٌ صنعناه من رغباتٍ لاواعية فينا، ليكونَ بديلًا عن الجنس. ففي تلك السنوات القليلة التي استمتعنا فيها أنا و"هـ"

بالحُبّ، بكُلِّ أشكالِه- الرَّصينِ والمَرِح، والرومانسيِّ والواقعيّ، والذي كان أحيانًا دراميًّا مثل عاصفةٍ رعديَّة، وفي أحيانٍ أخرى مُريحًا كانتِعالِ الحذاء المنزليِّ الناعم. حتَّى إنَّه لم يبقَ رُكنٌ من القلب أو الجسد ظلَّ دون إشباع. إذا كان الله بديلًا عن الحُبِّ، لكان من المفترض أن نفقد كلَّ اهتمامٍ به. فلماذا نهتمُّ بالبديل وقد نلنا الشيءَ الحقيقيَّ نفسه؟ لكنْ ليس هذا ما حَدَث. لقد كان كلانا يُدرِكُ أنَّنا نحتاج إلى ما هو أكثر من بعضنا بعضًا- إلى شيءٍ مختلفٍ تمامًا- يُشبعُ حاجةً مختلفةً تمامًا. فهل يُمكنك إذًا أن تقولَ إنَّ المحبَّين عندما ينالان بعضهما بعضًا، فإنهما لن يحتاجا إلى القراءة، أو إلى الأكل أو التنفُّس.

منذ سنوات عدَّة، بعد وفاة أحد الأصدقاء، كان لديَّ شعورٌ قويٌّ باستمراره في الحياة، بل إنَّه صارَ الآن في حالٍ أفضل. وبعد وفاة "هـ" تذلَّلتُ إلى الله كي أحصُلَ على واحد من مئة من ذلك الشعور بشأنها، فلم تكُن هُناك استجابة. فقط البابُ الموصَد، الستارة الحديديَّة، الخواء، الصفر المُطلق. "إنَّ هؤلاء الذين يسألون لا ينالون". لقد كنتُ أحمقَ لمَّا سألتُ. أمَّا الآن، فإذا جاء ذلك اليقين، فلن أثق به. سأظُنُّ أنَّه نَوعٌ من الإيحاء الذاتيِّ بفعل صلواتي.

مهما جرى، يجب أن أتجنَّب من يُحضِّرون الأرواح. لقد وَعدتُ "هـ" بذلك. فقد كانت تعرفُ بعضَ الأمور عن تلك الدوائر. إنَّ حِفْظ الوعود التي نقطعها للأموات، أو لأيِّ شخص آخر، هو أمرٌ جيِّدٌ جدًّا. لكنِّي بدأت أشعر بأنَّ "احترام رغبات الأموات" هي فخٌّ يُمكن أن

نقعَ فيه. بالأمس منعتُ نفسي في الوقت المُناسب من أن أقولَ بشأن أمرٍ تافهٍ: "«هـ» ما كانت لتُريدَ ذلك". إنَّ هذا ظُلمٌ للآخرين. ولن يمرَّ وقتٌ طويل قبل أن أستخدمَ جملة "ما كانت «هـ» تُحبُّه" كأداة لممارَسة الاستبداد المنزليِّ، وبمرور الوقت، سيُفتَضح بالتدريج أنَّ هذه الأمور المفترض أنَّها تفضِّلها، ليست سوى ما أفَضِّلُه أنا.

لا أستطيعُ أن أتحدَّث إلى الأولاد بشأنها؛ ففي الوقت الذي أُحاولُ فيه أن أفعلَ ذلك، يظهر على وجوهِهم ليس الحُزن والحُبُّ، ولا الخوف أو الشَّفَقة، بل يظهر أخطر أنواع المشاعر العازلة بين الناس: الإحراج. ويبدو عليهم أنِّي قلتُ كلامًا فاحشًا. فهُم يرجونني أن أتوقَّف. لقد كنتُ أشعُرُ بالشيء نفسه بعد وفاة أمِّي عندما كان أبي يذكرُها. لا أستطيع أن ألومَهُم؛ فهكذا هم الأولاد.

أعتقد أحيانًا أنَّ الحزي، مجرَّد الحزي الأخرق الذي دون معنى، يعمل عمل الرذيلة نفسها في منع الأفعال الصالحة والسعادة المباشرة. وليس هذا في وقت الصِّبى فقط، بل دائمًا.

أم هل الأولاد على حقّ؟ ماذا كانت "هـ" لتُظنَّ بشأن هذه الكرَّاسة الرهيبة التي كثيرًا ما أعودُ إليها؟ هل هذه الكتابات كئيبة إلى حدِّ المرض؟ لقد قرأتُ من قبل تلك الجملة: "إنِّي أستلقي مستيقظًا طَوال الليل، أفكِّر في وجع الأسنان، وفي البقاء يَقِظًا طَوال الليل". هذه هي حقيقة الحياة. فدائمًا ما يُشكِّلُ طيفُ البؤسِ أو انعكاسُهُ في وَعينًا، جُزءًا لا يتجزأُ من البؤس نفسه: أنَّك لستَ فقط تُعاني، بل تظلُّ تفكِّر

في حقيقة أنَّك تُعاني. لستُ فقط أعيشُ كلَّ يومٍ طويلٍ، يبدو بلا نهاية، غارقًا في مشاعر الفقد والنوح، بل أعيش كلَّ يومٍ أُفَكِّرُ في أنِّي أعيش كلَّ يومٍ غارقًا في هذه المشاعر. هل هذه الملاحظات التي أكتبها تزيدُ من ذلك الجانب- التفكير في الحُزن؟ هل تؤكِّدُ هذه الملاحظات ذلك السَّير الرتيب في المكان نفسه، وحول الموضوع ذاته؟ لكن ماذا ينبغي أن أفعل؟ يجب أن أنالَ أيَّ نوعٍ من المُخدِّر، والقراءة لا تكفي الآن. فبكتابة كلِّ شيء (كلِّ شيء؟ لا: بل فكرة من بين كلِّ مئة فكرة) أشعر بالخروج قليلًا من الأمر. هكذا سأدافع عن هذا الأمر أمام "هـ" لكن بنسبة عشرة إلى واحد، ستستطيع أن ترى ثغرة في دفاعي.

ليس فقط الأولاد، بل هناك نتيجة جانبيَّة غريبة لما حدث لي من فقدان: أنِّي بدأتُ أعي أنِّي صرتُ أشكِّلُ نوعًا من الإحراج لكلِّ الذين أُقابلُهم. في العمل والنادي والشارع، أرى الناس وهُم يقتربون منِّي، يحاولون أن يجدوا ما يقولونه، ويفكِّرون ما إذا كانوا "سيقولون شيئًا بشأن الأمر" أم لا. وأجد نفسي أكره أن يقولوا، وأكره ألَّا يقولوا أيضًا. بعضهم يجبُنون تمامًا ويبتعدون عن المواجهة. مثلًا، "ر" ظلَّ يتجنَّبُني مدَّةَ أسبوع. أكثر مَن أحبُّ ردود فعلهم هم اليافعون حَسِنو التربية، الذين يقتربون منِّي بشيء من الخوف كما لو كنتُ طبيبَ الأسنان، وقد احمَرَّت وجوههم، يُنجِزونَ الأمرَ، ثمَّ يبتعدون في اتِّجاه الحانة بأقصى سُرعة يمكن أن تظلَّ في حدود الأدب واللياقة. ربَّما يجب عَزْل المحزونين في مُستعمرات خاصَّة مثل معسكرات المصابين بالجُذام (البرص).

يرى آخَرون أيضًا أنِّي أسوأ من مُسبِّبٍ للإحراج، فأنا عندهم رمزٌ للمَوت. عندما أقابل زوجَين سعيدَين في زواجهما، أستطيع أن أستشعرَ أنَّ كلَيهما يقولان في نفسَيهما: "ذات يوم سيلقى أحدُنا هذا المصير".

في البداية كنتُ أشعر بالخوف الشديد من الذهاب إلى أماكن كنت أشعر فيها بالسعادة مع "هـ"- حانتنا المفضَّلة، غابتنا الأثيرة. لكنِّي قرَّرتُ أن أفعلَ ذلك بسرعة، كالطيَّار الذي يقرِّر أن يعودَ إلى التحليق في أسرع وقتٍ ممكن بعد تعرُّضه للسُّقوط بالطائرة. على خلاف ما توقَّعت، ليس هناك فرق. لا أشعر بغيابها في هذه الأماكن أكثرَ ممَّا أشعرُ به في أماكنَ أخرى. ليست للأمر علاقة بالأماكن. أعتقدُ أنَّه إذا حُرِمَ الإنسان من الملح تمامًا، فلن يشعرَ بغِيابه في نوع طعام، أكثر من نوع آخر. سيكونُ الأكلُ عمومًا مختلفًا، كلَّ يوم، وفي كلِّ وجبة. ما جرى يشبه ذلك. إنَّ فعلَ الحياة نفسَه صار مختلفًا في كلِّ مكانٍ وكلِّ وقت. لقد صارَ غيابُها مثل السماء، يمتدُّ فوق كلِّ شيء، ويغطِّي كلَّ شيء.

لكنْ لا. ليس ذلك دقيقًا. هناك مكانٌ أشعر فيه بغيابها أكثر من غيره من الأماكن، وهو مكان لا أستطيع تجنُّبه، وأعني به جسدي. لقد كانت لهذا الجسد أهمِّيَّةٌ مختلفة عندما كان جسدَ مَن يعشقُ "هـ" وتعشقُه. والآن يبدو كمنزل مهجور. لكنْ لا. فلا أخدَعْ نفسي. يمكن أن يكونَ هذا الجسد مُهمًّا لي مرَّة أخرى، وبسرعة، إذا شعرتُ بأنَّه ليس على ما يُرام.

السرطان والسرطان والسرطان. أمِّي وأبي وزوجتي. تُرى على مَن يقع "الدور"؟ لكنَّ "هـ" نفسها، التي ماتت بسببه، وكانت تعرف ذلك مُسبَّقًا، قالت إنَّها فقدَتِ الكثير من خوفها من هذا المرض. عندما يأتي الواقع، فإنَّ الفكرةَ أو اسمها يفقدان الكثير من تأثيرهما. وحتَّى وقتٍ معيَّن كدتُ أفهم ذلك. هذا مُهمّ. لا يتعامَلُ أحدٌ مع "السرطان" ولا "الحرب"، ولا "التعاسة" (أو "السعادة") بصورة مُجرَّدة. إنَّنا فقط نلتقي كلَّ ساعة وكلَّ لحظة من لحظات الحياة عندما تأتي إلينا أو نأتي إليها. كلُّ أشكال الفرح والحزن تكونُ حاضرةً معًا. كثيرًا ما توجد شوائبُ سيِّئة في أفضل لحظات حياتنا، والكثير من النقاط المُضيئة في أحلك أوقاتنا. إنَّ المرءَ لا يحصُل على كلِّ التأثير الذي نفترض أنَّه يُصاحب "الأمر نفسه". لكنَّنا مُخطئون نفترض وجود هذه "الأمور" في صورة نقيَّة مُجرَّدة كالشرِّ الأعظم، أو الخير العميم. لكنْ عندما يأتي الأمرُ نفسَه، فإنَّنا نكتشفُ أنَّه ملآنٌ بأشياءَ مختلفة مجتمعة معًا. أمَّا الاسم أو الفكرة المجرَّدة فأمرٌ آخرُ خلافٌ للواقع.

غريبةٌ تلك اللحظات من السعادة، بل البهجة، التي اختبرناها معًا أحيانًا بعد أن فقَدْنا كلَّ أملٍ في الشفاء. كم كان حديثنا معًا طويلًا وهادئًا وباعثًا على القوَّة، في تلك الليلة الأخيرة!

مع كلِّ ذلك، نختبر هذه معًا بالتمام. هناك حدود لمفهوم "الجسد الواحد". لا تستطيع حقيقةً أن تشاركَ ضعفَ جسدِ إنسانٍ آخر، مهما أردت، ولا خوفه ولا ألمه. إنَّ ما تشعرُ به يمكن أن يكونَ سيِّئًا. ومن

المفهوم أنَّه قد يكون بدرجة السوء نفسها التي يشعر بها الآخر، لكنِّي لا أثقُ بتاتًا بمَن يدَّعي أنَّه يشعرُ تمامًا بما يشعر به الآخر. عندما أتكلَّم عن الخوف، فإنِّي أعني الخوفَ البدائيَّ الذي تشعر به الحيوانات. أنْ يشعرُ الكائنُ بالرغبة في الانكماش رُعبًا من الموت والدَّمار. ذلك الشعور الخانق حينما تشعر كما لو كُنتَ فأرًا وقعَ في مصيدة. لا يمكن أن ينقلَ أحدٌ هذا الشعورَ إلى آخر. يمكن أن يتعاطفَ العقلُ أو يحاول المُشاركة، لكنَّ الجسد لا يستطيع أن يشعرَ بما يشعرُ به جسدٌ آخر. ربَّما بصورةٍ أو بأخرى يمكن أن تشعرَ أجسادُ العُشَّاق بعضها ببعض. لقد دَرَّبَتهُما كلُّ مسالك الحُبِّ لديهما أن يحصلا على أحاسيس، ليست متطابقة، إنَّما متكاملة ومُتبادَلة، ورُبَّما متضادَّة بعضهما نحو بعض.

لقد كان كلانا يعرف ذلك. كانت لديَّ مآسِيَّ الخاصَّة التي ليست مآسيها، وكانت لديها مآسيها التي ليست مآسيَّ. ربَّما تكون نهاية مآسيها بدايةَ نُضج مآسيَّ. لقد كنَّا نسير على دَربَين مُختلفَين. تلك الحقيقة الباردة التي تُصوِّرُها تعليمات المرور (سيِّدتي، أنتِ إلى اليمين. سيِّدي، أنت إلى اليسار) ليست سوى بداية لما سيحدث بصورة حقيقيَّة وكاملة ودراميَّة في الموت.

إنَّ هذا الانفصالَ ينتظر الجميع كما أفترض. لقد كنتُ أفكِّر أنَّ من سوء طالعنا أن تتمزَّق رابطتُنا أنا و"هـ". لكنَّ الواقعَ المُفترض أنَّ هذا أمرٌ سيحدث لكلِّ الأحبَّة. لقد قالت لي ذاتَ مرَّة: "حتَّى إذا متنا معًا في اللحظة نفسها، ونحن نرقد مُتجاوِرَين، فسيكونُ انفصالًا مثل ذلك

الذي نخشاه جدًّا". بالتأكيد لم تكُن **تعرف** أيَّ شيءٍ أكثر ممَّا أعرف. لكنَّها كانت قريبةً من الموت- قريبةً بما يكفي كي تفترض افتراضًا معقولًا. كانت كثيرًا ما تقتبس تلك المقولة: "تذهب وحدك إلى وَحدة الموت". وقالت إنَّ هذا هو الشعورُ الإنسانيُّ. وكم أنَّه من غير المتوقَّع أن يكون الأمر غير ذلك! لقد كان ما جمَعَنا معًا هو الزمان والمكان والجسد. لقد كانت هذه الأمور أشبَه بخطوط الهاتف التي تواصَلْنا بواسطتها، إذا قُطِعَ أحدُها أو جميعها، أيًّا كان، أفلا تتوقَّف المحادَثة؟

إلَّا إذا كنتَ تفترض أنَّ هناك وسائلَ أخرى للتواصل- وسائلَ مختلفةً، لكنَّها تؤدِّي المهمَّةَ نفسَها- يُمكن أن تستبدِل تلك في الحال. لكنْ حينها، ما معنى قَطْع الأولى؟ هل الله "مهرِّجٌ" يزيح من أمامك طبق الحساء لكي يضعَ آخرَ بدلًا منه في اللحظة التالية؟ حتَّى الطبيعة لا تمارسُ التَّهريج بهذه الطريقة. إنَّها لا تعزف النغمة نفسَها مرَّتَين متتاليتَين.

من الصعب ممارسة الصبر مع مَن يقولون إنَّه "لا موت" أو إنَّ "الموت لا يهم". هناك موت، وكلُّ ما يوجد مهمّ، ولكلِّ ما يحدث تداعيات، ولا يُمكن إلغاؤه أو جعله كأنَّه لم يكُن. عليك إذًا أن تقولَ إنَّ الولادة لا تهمّ. إنِّي أنظر إلى السماء ليلًا وأتساءل: هل هناك ما هو أكثر تأكيدًا من هذا في كلِّ ذلك الزمان والمكان الشاسعين؟ أنِّي إذا سُمح لي أن أبحثَ في كلِّ هذا الفضاء الرَّحب، فلن أجِدَ وجهَها ولا صوتَها، ولا لمسة يدها؟ لقد ماتت. هل يصعبُ فَهْم هذه الكلمة؟

لن تفيد أيَّة صورة. كما أنِّي لا أستطيع حتَّى أن أرى صورتَها واضحة في مخيِّلتي. لكنَّ الوجه المميَّز لشخصٍ غريبٍ تمامًا رأيتُه وسط جَمْع من الناس هذا الصباح يُمكن أن أستحضره في خيالي بدقَّة بالغة في اللحظة التي أغمضُ فيها عينيَّ في الليل. بلا شكّ، فإنَّ السببَ غاية في البساطة. لقد رأينا وجوهَ مَن نعرفهم جيِّدًا بوسائل مختلفة، ومن زوايا عدَّة وتحت درجات إضاءة متفاوتة، وبتعبيرات كثيرة- يمشون أو ينامون أو يضحكون أو يبكون أو يأكلون أو يتكلَّمون أو يفكِّرون- حتَّى إنَّ ذاكرتَنا تزدحمُ بكلِّ هذه الصور والانطباعات، فتتحوَّل إلى صورة باهتة غير واضحة المعالم. لكنَّ صوتَها لا يزال حيًّا. إنَّ ذاكرةَ ذلك الصوت يمكن أن تحوِّلني في أيَّة لحظةٍ إلى طفلٍ باكٍ.